الفصل الأول

القسم الأول استعراض تاريخي سريع

obeikandl.com

obeikandl.com

أصول العراقيين

لقد ورد في العهد القديم٢ أن قبائل أبناء نوح (بعد أن يعدد نسلهم) وفي أثناء ارتحالهم شرقاً ٣ .. (وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك) وأن تلك المدينة قد سميت بابل وأنها قد « دعي اسمها بابل لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض « وربما كان هذا الكلام يتعلق بالهجرة الأولى للأقوام الجزيرية (أو السامية) أو بإحدى هذه الهجرات ، وربما كان تبلبل لسانهم تعبير عن اختلاطهم بالأقوام الموجودة في تلك البقعة أوقربها ... ، ونجد في المصادر المختلفة أن البلاد تعرضت لغزوات العيلاميين الذين تقع بلادهم شرق العراق وقد نص العهد القديم على أن «عيلام « هو أحد أبناء سام بن نوح فهم الآخرون من الساميين٤ فتكون البلاد قد أصبحت عرضة للموجات السامية من الغرب وكذلك من الشرق.

ولكن حيث تجمع المصادر فإن التاريخ يشير الى السومريين باعتبارهم سكان العراق القدامى بموجب أقدم النصوص والأدلة٥ ، حيث تنص «جداول الملوك» السومرية على أن الملوك والمدن ظهرت في العراق قبل الطوفان . ومع أن أصل هؤلاء يبقى

٢- العهد القديم سفر التكوين ـ الاصحاح الحادي عشر .

٣- نجد تفسيراً لتوجههم شرقاً في كتاب المرحوم أحمد الشقيري الموسوم / خرافات يهودية / على الصفحة ٥٣ حيث يقتبس ما يشير الى ذلك بقوله» إن إبراهيم قد صرف أبناءه شرقاً في حياته « وذلك دون أن يشير الى موضع الاقتباس

٤- العهد القديم ـ سفر التكوين ـ الاصحاح العاشر . ويذكر السيد عبد الرزاق الحسني في كتابه تاريخ العراق السياسي الحديث ج١ ص ١٢ .. أنهم سكنوا جبال خوزستان ومنها انحدروا لمهاجمة مملكة (أكد وشومر)

٥- انظر مثلاً (العراق في التاريخ) لجماعة من الاساتذة الجامعيين ـ موضوع السلالات السومرية ص٩٦ .

موضع تساؤل لكن كــل شيء يدل على قدم وجودهم وسبقه على الهجرات السامية ، و يظهر في محفوظات التـاريخ أبداً ما يدل على التعايش وعلى أن البابليين اختلطوا مع السومريين وكونوا معاً حضارة العراق الشامخة التي قدمت عدداً من أهم المنجزات في تاريخ البشرية فيذكر عبد الرزاق الحسني (وفي أيام نبوخذ نصر « ٦٠٤ ق م . ٥٦١ ق م « قسم البابليون النهار الى ٢٤ساعة والساعة الى ٦٠ دقيقة والدقيقة الى ٦٠ ثانية واكتشفوا السنة الشمسية والسنة القمرية وعددا من الظواهر السماوية)٦. ويشير في الصفحة التالية الى تدهور أحوال العراق بعد احتلاله من قبل كورش الفارسي مما يوضح طبيعة العلاقة بين المحتل الأجنبي وأحوال البلاد .

واذا كان العراق قد تعرض في مرحلة لاحقة لغزوات مختلفة ، بمــا في ذلك غزوة أو غزوات الاسكندر المقدوني التي كسحت عن العراق وجود الامبراطورية الفارسية كمــا هو معلوم ، فإن آخر تلك الغزوات بالنسبة الى العصور القديمة جـاءت من قبل الفرس الذين تقع بلادهم شرق العراق وتفصلها عنه سلاسل من الجبال انحدروا منها الى أرض العراق بعد ما انتصروا على السلوقيين الذين استقروا في العراق بعد وفاة الاسكندر وتقسيم امبراطوريته واستطاع الفرس السيطرة على ما بقي من بابل وغيرها من مدن العراق بعد انتصارهم ذاك وقد ذكرالقرآن الكريم أو أشار الى ذلك في أول سورة الروم فأشار الى هزيمة الروم بقوله سبحانه « غُلبت الروم في أدنى الأرض وهُمْ مِن بَعْدِ غَلَبِهم سيَغْلِبون في بِضع سنين» ٧ وبغض النظر عن مواطــن تلك الهزيمة والانتصار فإن الفرس الفرثيين قد بنوا في النهاية عاصمتهم في المدائن (طيسفون) مقابل عاصمة السلوقيين عبرنهر دجلة جنوب بغداد بحوالي ٣٠ كلم ، ثم أعقبتهم موجة ثانية من الفرس عرفت بالساسانيين اكتسحت الفرثيين واستقر الساسانيون في العراق٨ في محاولتهم لحكموا شعب العراق ، و في الفترة التي سبقت قيام الدولة العربية الاسلامية

٦- عبد الرزاق الحسني / تاريخ العراق السياسي الحديث ج١ ص٤٢ .

٧- لقرآن الكريم - سورة الروم - الآية ٢ .

٨- انظر :الحسني / تاريخ العراق السياسي ج١ ص٧٢

شهد العراق قيام عدد من الممالك العربية في العراق في (الحضر)و(الحيرة) وغيرهما٩ ، وكان بعضها (مملكة الحيرة) موالياً لملوك الفرس لفترة من الزمن مع أنها شهدت تدخل مملكة الحيرة لتنصيب أحد الأمراء من الفرس (بهرام جور) لوراثة عرش أبيه (يزدجرد الأول)في عـاصمة الفرس التي بنوها في المدائن وذلك بعد أن عاش هذا الأمير سنوات في ظلال مملكة الحيرة مع قرينه الأمير العربي (المنذر بن النعمان الأول) الذي أصبح ملكا على الحيرة وحليفاً للفرس ضد جيوش الروم . وبعد توالي عدد من ملوك الفرس والعرب فكر ملك الحيرة النعمان الثالث بدولة عربية تجمع قبائل العرب حيثما وجدت لكن هذا الملك تم احتجازه لدى ملك الفرس في عملية خداع انتهت بقتله وقيام الحرب بين العرب والفرس في معركة ذي قار التي انتصر فيها العرب على الفرس انتصارا باهرا ذكره الرسول العربي في حديثه « هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبي نُصروا « والتي جاءت بمثابة تمهيد للانتصارات العربية الكـاسحة التي أنهت فيهـا الجيوش العربيـة المسلمة (والتي ضمت في صفوفهـا عـددا مـن قبـائل وأهل العراق ممن كانوا يدينون بالنصرانية) حكم أكاسرة الفرس المجوسيين.

ولم تكن أولى الهجرات الساميّة والموجـات اللاحقـة إلا تمهيداً أو جزءاً من الموجات العربية التي أعطت العراق طابعه العربي رغم احتلال الفرس له وهو ما لم يستطع الفرس تغييره .

٩- انظر / العراق في التاريخ - ص٨٥٢ .

الهجرات السامية والعربية

يبدو أن الهجرات المبكرة إلى العراق كانت من قبل مجموعات صغيرة ومنفصلة قد تكون على شكل عائلة أو مجموعة عوائل ، انقطعت بسبب ضعف أو انعدام وسائل الاتصال صلاتها بأرضها السابقة واقتصر عليها لذلك ما طرأ عليها من تطور بيولوجي وثقافي واجتماعي ، وكما قلنا فإن صعوبة المواصلات كان له الأثر الأكبر في ذلك ، وهذا يمكن أن يفسر لنا الاختلافات التي اكتشفها الباحثون بين السومريين وبين الأقوام أو الموجات اللاحقة في العراق ، وقد يطرح التساؤل عن دور العربة في المواصلات حيث أن هذا الاختراع الثوري في زمانه كان صالحا للتنقل في مسافات وشروط محددة ولذلك ظلت الصحراء التي أصبحت قاحلة بامتداداتها الشاسعة تحديا عصيّاً على التجاوز لأن الجهاز الحركي في العربة (وهو الحيوان الذي يسحبها) هو مثل مستخدمها بحاجة الى محطة للراحة ومصدر متنقل للماء.. لكن في حوالي ذلك الوقت ظهر اكتشاف استطاع التفوق على الاختراع ذلك هو الجمل الذي أصبح صديقاً طيبا لإنسان الجزيرة العربية ، وقد أهّلته حجمه وقدرته على تحمل العطش وقطع الصحراء الواسعة ذات الرمال .. وفي ذات الوقت فإن المجموعة العربية المستقرة في جزيرة العرب أي تلك المجموعة من الناس التي لم تتح لها الفرصة أو لم تجد الحاجة الى الهجرة من أرضها قد استفادت من فترة بقائها في تلك الأرض لتقوية الأواصر بين أفرادها في الوقت الذي ازداد فيه عدد هؤلاء الأفراد فتحولت العائلة الى قبيلة يمتد وجودها على مسافات متباعدة كما استطاعت أن تحافظ على صلاتها وتواصلها مع مجموعاتها الأصلية وبذلك أصبحت مسألة التشابه الخِلقي واللغوي ملحوظة وبارزة في المرحلة الجديدة والمراحل اللاحقة ، ورغم أن أحد الباحثين وهو السيد عبد الأمير الرفيعي ذكر بعض هذه المعلومات لكنه لم يتمكن للأسف من الخروج منها بنتيجة ١٠ نهائية .. ، واذا كانت القبائل العربية قد

١٠- عبد الأمير الرفيعي (العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية) ـ المقدمة ـ ص٩٣ وما بعدها .

استطاعت أن تقيم علاقات إيجابية مع أهل المدن مستفيدين مما يستطيع الجمل أن يقدمه من خدمات النقل البعيد المدى والكبير الحجم كما أنه لم يكن ثقيل الوطأة على المجتمعات الحضرية باستغلاله الأرض غير المزروعة والتي لا تنمو فيها إلا نباتات لا تصلح إلا لرعي الجمال . وهكذا نشأت علاقات اجتماعية واقتصادية بين سكان وادي الرافدين القدامى بين القبائل العربية القادمة من الصحراء بمرور الزمان وسهل ذلك وشجع طبعاً قدوم قبائل جديدة أو عوائل جديدة أُخرى . ويبدو أن العرب وصلوا بجمالهم الى كافة المدن البابلية والآشورية قبل سقوطها ولكن استقرارهم استغرق و لاشك فترة من الزمن طويلة نوعاً ما .. وعلى كل حال فقد كان أهل الحيرة لا يتكلمون لغة غير العربية عندما جاءهم عرب الفتح الإسلامي ، فالرفيعي ينقل عن مصادره حواراً دار بين القائد العربي خالد بن الوليد وبين أهل الحيرة إذ يقول (عديّ اللخمي) لخالد بن الوليد .. « ليس لنا لسان إلا العربية » و نجده في هذا الحوار يصف مجتمعه بأنهم « عرب عاربة وأخرى متعربة » ١١ ،وقد جاء في كتاب السيرة النبوية لابن هشام اليعافري أن النعمان بن المنذر هو من سلالة قنص بن معد أو من سلالة ربيعة بن نصر ، و» مَعد» المذكور هو احد أبناء عدنان الذي يرجع اليه نسب النبي العربي عليه وآله أفضل الصلاة والسلام ١٢ ، أما ربيعة بن نصر فهومن أواخر ملوك التبابعة (أبناء تُبَّع) ملوك اليمن فسُيِّرت هجرتهم باحتلال البلاد من قبل الحبشة فجهز بنيه وأرسلهم الى العراق فسكنوا الحيرة١٣ . ويذكر أن عرب الحيرة تنصروا فوقع العداء بينهم وبين الفرس الذين أرادوا أن يتبع العرب دينهم المجوسي فرفضه هؤلاء.

ويرى الدكتور عبد الأمير الرفيعي أن سيطرة الجيوش الأخمينية (الفارسية) على بلاد الرافدين لم يغير جوهر وطبيعة الهجرات البشرية نحو بلاد الرافدين وأن الآراميين تغلغلوا

١١- الرفيعي ـ العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية ـ ج١ ص٣٤

١٢- انظر كتاب السيرة النبوية لابن هشام (عبد الملك بن هشام اليعافري)تحقيق وتعليق سعيد محمد اللحام/ دار الفكر/ ص٢٢ وص٣٢.

١٣- المصدر السابقلابن هشام ص٩٢ .

في بلاد الرافدين وبقية أقاليم الهلال الخصيب حتى سادوا فيها وسادت لغتهم الى درجة أن الملك دارا الأول (حوالي سنة ٢٥٠م) اضطر الى اعتماد لغتهم لـغة رسمية إلى جانب الفارسية وأنها مهدت لعملية التزاوج اللغوي والتوسط بين اللغة العربية واللغات القديمة في بلاد بابل ١٤ وهذا يدل على المشتركات اللغوية بين العربية وأمهاتها من اللغات القديمة في العراق كما يلاحظ الباحث المذكـور أن الوجود الفارسي كان مقتصراً على شرائح ارتبط وجودهـا بالمؤسسات الرسمية الفارسية في أيام الحكم الفارسي الساساني حيث اعتمدوا على سكان السواد في العمل الزراعي١٥ .

obeikandl.com

١٤- عبد الأمير الرفيعي ـ المصدر أعلاه ج١ ص٦٤ .

١٥- الرفيعي ـ المصدر السابق ص٧٤ . ويجدر الانتباه الى أن الاحتلال الفارسي بدأ بالموجة الأخمينية ، ثم عادوا الى العراق بالموجة الساسانية التي شهدت سقوط امبراطورية الفرس على يد الجيوش الاسلامية .

سيادة العرب على العراق وتأسيس الأمصار العراقية (الكوفة والبصرة والموصل)

نخرج مما سبق بنتيجة هي أن سكان العراق على العموم كانوا من العرب وأن الاحتلال الفارسي لم يستطع أن يغير شيئاً من الواقع الممتد على الأرض العراقية ثم جاء الإسلام وتنبأ الرسول العربي بسقوط مملكة الفرس وزوال حكمهم ووعد (سراقة)١٦ بأنه سيلبس أساور كسرى وهو ما تحقق١٧ بعد المعارك المتلاحقة التي لاحقت فيها جيوش المسلمين جيوش فارس الى أقاصي بلادها وأصبح العراق العربي حراً مسلماً وإن احتفظ بعض سكانه بديانتهم المسيحية وعاشوا بود وسلام مع أشقائهم وساهموا لاحِقاً في ترجمة العديد من الكتب أونقلها الى العربية لتتغذى بها الثقافة العربية وتنمو وتزدهر ثم لتنتشر في بقاع العالم فتنشر فيها العلوم والمعارف لتصل البشرية الى ما وصلت إليه اليوم من حضارة وتقدم . وصاحب تقدم الجيوش العربية تأسيس أو تمصير عدد من المعسكرات لتصبح مدنا عامرة بالسكان عاجّة ٍبالنشاط البشري بجوانبه المختلفة ، وذلك على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، ثم لتصبح إحدى هذه المدن وهي الكوفة عاصمة للدولة العربية المسلمة على عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه الشريف .. والذي خاض عدة حروب لتثبيت سلطة الخلافة وانتهى الأمر بتعرضه الى عملية اغتيال دنيئة أدت الى وفاته فتم اختيار ولده (الحسن بن علي رضي الله عنه)١٨ ليكون خليفة للمسلمين ثم ليتنازل لغريم أبيه معاوية عندما رأى في ذلك التنازل حقنا لدماء المسلمين وجاء تنازله وفقاً لاتفاق بين الطرفين و يمكن أن يجد الراغب تفصيل هذه الأحداث في كتب التاريخ المتعلقة بتلك الفترة وأحداثها ، واستمر حكم الأمويين الذين ورثوا معاوية خلافاً لما تعارف

١٦- هو الرجل الذي حاول إدراك النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه في هجرته فغاصت أقدامه وقوائم فرسه في المال ثم عفى عنه النبي ووعده بما ذكرناه بعد أن أسلم .

١٧- انظر الجزء السابع من كتاب البداية والنهاية لابن الأثير ص٨٠٨١ .

١٨- wانظر البداية والنهاية لابن كثير ج٧ ص٤١٠٢ والصفحات التالية .

عليه المسلمون من ابتعاد عن توريث الخلفاء السلطة لأبنائهم .. استمر الحكم الأموي تسعين عاماً شهدت العديـــد من الثورات والاضطرابات في العراق على وجه الخصوص ولم يكن هدف العراقيين من المشاركة في تلك الأحداث إلا التخلص من الظلم وإحقاق الحق ، وأخيراً تمكن العباسيون مـن قيـادة الناس في ثورة شملت العراق وما جاوزه تجاه المشرق ، ثم لتكوين جيش انتصر على الأمويين واكتسح حكمهم الى مياه المحيط الأطلسي وعادت الكوفة عاصمة للدولة ثم تنقلت في عدة أمـاكن انتهت أخيراً ببناء بغداد لتكون عاصمة للدولـة التي امتدت شـرقاً وغرباً وشملت العديد من البلدان الحالية وشعوبها في آسيا وأفريقيا . لقد دخلت شعوب هذه البلدان الاسلام تخلصاً ممـــا كانت تعاني منه من آفات فردية واجتماعيـة واقتصادية ووجـــدت فيه الخلاص من العبودية والاضطهاد والاعتداء على الحقوق الانسانية بكل أنواعهـا التي كـابدتها في حياتها السـابقة ١٩ لكن سياسة الأمويين التي قامت على الإستئثار بالحكم كانت تختـار من رؤساء القبائل العربية من يلائم سياستها بغض النظر عن سلوكهم فتجعلهم أمراء على الأقاليم والبلدان فكـان الكثير من هؤلاء يتجاوزون الحدود التي حددها الاسلام للحكـام فنقمت الشعوب على حكـم الأمويين وسخطت عليهم وتعاطف كثير من صُلحـاء العرب مع المظلومين فلما ظهر دعاة العباسيين سارع العرب ومن استجاب لهم من الـفرس وغيرهم الى الانضمام للدعوة الجديدة فتقوت بهم واشتد ساعدها وأصبحت قـــادرة عـــلى الثورة والسيطرة على خراسان من خلال هؤلاء الأعوان الذين انطلقوا رافعين رايـات العباسيين السوداء رمزاً للغضب والتمرد ليشكلوا جيش الثورة العباسية. وجد دعاة العـباسيين في خراسان البعيدة عن عاصمة الدولة الأموية أرضاً خصبة لدعوتهم بسبب السخـط المـنتشـر (ولاشك أن بعض ذلك السخط والتذمر كانت له أسباب قومية عنصرية ، إذ أن قوانين الحرب التي كـانت سائدة آنذاك كانت تقضي باستعباد

١٩- يروى أن أهل بخارى جاءوا الى عمر بن عبد العزيز يشكو من القائد العسكري لجيش المسلمين الذي هاجم مدينتهم دون إنذار وتبليغ بمطالب المسلمين فأرسل إليه يأمره أن ينسحب من المدينة وأن يبلغ أهلها بدعوة الاسلام وأن يمهلهم ثلاثة أيام قبل أن يعود الى حربهم فلما فعل ذلك دخلوا جميعا في الاسلام .

الأسرى في القتال ولاشك أنه كـان الكثير من سراة الفرس وكبرائهم بين أسرى الجيش الفارسي ولا يجوز في الاسلام قتل الأسير ، وهكذا وجد هـؤلاء فرصة البقاء على قيد الحياة ، ورغم أن كثيراً منهم دخل الإسلام ممـا أدى الى عتق رقابهم من العبودية لكن يبدو أن الكثيرين كانوا يحنون الى أيام مجد فارس وسلطانها على الشعوب) .

obeikandl.com

العباسيون وانطلاق الثورة من خراسان ..

انطلقت الثورة من بلاد خراسان للاسباب التي ذكرناها وتقدم الجيش الى العراق الذي لم يخلُ من أنصار الدعوة العباسية لكن كثرة الرقباء والجواسيس الأمويين كانت تحد من حركتهم قبل أن يقترب الجيش العباسي الزاحف ليلتحق به كان ينتظر الفرصة للخلاص ، وسرعان ما انتصر العباسيون الذين كانوا يفخرون بقرباهم الى نبي المسلمين حتى تجاوزت جيوشهم عاصمة الأمويين لتلاحق أمراء بني أمية الفارّين .. واجتهد أول خلفائهم في التخلص من كل تهديد وعدو . وكان من بين قادة الجيش العباسيين رجلين من الفرس من أهل خراسان هما أبو سلمة الخلاّل ويساعده أبو مسلم الخراساني وسواء كانا خائنين أو طامحين فإنهما قد لقيا النكال على يد الخليفة العباسي الأمر الذي وجده الفرس طعنة ظلوا يذكرون أثرها زمناً طويلا . وهكذا استقر أبو جعفر المنصور في الخلافة بعد وفاة أخيه الأكبر أبي العباس الذي لقب بالسفاح وكان كلاهما لايجد في مدينة الكوفة العاصمة التي يشعر فيها بالطمأنينة والفخر فاستقر رأي أبي جعفر المنصور على بناء بغداد في مركز العاصمة الحالية في جهة الكرخ وأسماها دار السلام.

قضى أبو جعفر حياته في بغداد حريصاً على أن يجذب إليها أبرز علماء عصره وفقهائهم وشعرائهم وأدبائهم وكل من يمكن أن تفتخر به مدينة من المدن وتابعه في ذلك من جاء بعده من خلفاء بني العباس حتى أصبحت دار السلام في عهد هارون الرشيد أكثر المدن في العالم زهواً وبريقاً وشهرة في الآفاق . وكان له ولدان هما الأمين وأمُّه زبيدة ابنة عم هارون ،والثاني هو المأمون وأمه جارية فارسية فجعل الأمين ولياً لعهده ومن بعده المأمون ، وكان وزير هارون من الفرس هوجعفر البرمكي الذي أصبح له نفوذ واسع في الدولة وكان له ولدان اختص كل منهما بتربية وتدريب واحد من وليي العهد ، ولسبب ما وربما كان خشية هارون من مؤامرة يحوكها البرامكة فقد قام بالقضاء على الوزير وولديه بلا تردد .

الشعوبية .. حقيقتها وظهور نشاطها منذ قيام الدولة العباسية

ظهرت في عهد الامبراطوريات الفارسية أديان ومعتـقدات فارسية قد تكون تلخيصاً أو انعكاسا لثقافات أبعد في انتشارها من حيث الزمان والـمكان .. فظهرت عقائد المانوية وكذلك المزدكية واتخذت الدولة الساسانية دينها الرسمي المجوسية واضطهـدت أتباع العقائد الأُخرى فابتعد أتباعها نحو أواسط آسيا ثم وجدوا متنفسا لهم في ظل التسـامح الديني الذي امتازت به الدولة الإسلامية لكن التاريخ يكشف لنا أن كثيراً من الفرس اعتنقـوا الإسلام بعد وقوعهم في الأسر تخلصاً من أثقال العبودية لكنهم ظلوا يحملون في باطنهـم بعض أفكار وعقائد دياناتهم السابقة وهذا لاينفي أن الكثيرين من الفرس قد آمنوا بالإسلام إيماناً عميقا وحازوا بين المسلمين مكانة سامية ومن أشهر مسلمي الفرس الصحابي الجليل سلمـان والإمام الجليل أبو حنيفة ولم يكن موقف الاسلام من الفرس يتسم بأدنى ميل عنصري .

وكانت أكثر تلك الديانات كما يبدو تقول بالحلول إذ يزعمون أن روح الله تحـل ببعض المخلوقات فيعظمونها ، وربما فسر لنا هذا ظهور ما يشبه هذا الاعتقاد عند غـلاة الحركات الصوفية التي اتسمت بها الكثير من الحركات التي ادعت التشيع فأَلّه بعضها الإمام العظيم علي بن أبي طالب ليضلوا به الناس وكان أول من حارب هذه العقائد عند بروزهـا هو هذا الرجل العظيم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وربما اعتقد الأمويون أن قسوتهم كانت كافية لدحر هذه العقائد لكن قيام الدولة العباسية ووجود القادة الفرس بين صفوفها فسـح المجال لظهور حركات متنوعة فيما بعد تجد فيها الأثر القومي مختلطاً بالمعتقد .. فـبعضهم يقدس أبا مسلم الخراساني ويعتبره إلهاً حلت فيه روح الإله واعتبره بعضهم نبيـاً ، ودعا بعض تلك الحركات لتجديد الزرادشتية (دين المجوسية) أو المانوية وبعضها اعتنق المزدكية ، ورفع عدد من أتباع تلك العقائد راية الثورة وتمردوا على الدولة العباسية وحملـوا السلاح داعين الى استعادة الحكم الفارسي فمن ذلك حركة المقنع

وحركة « اسحاق الترك « وحركة بابك الخرَّمي ٢٠ . وتمثل جانب آخر من نشاط هذه الحركات بالعمل الثقافي فقاموا بالترجمة والتأليف والكتابة عن أمجاد الفرس كما نشطوا في ذم كل ما هوعربي .. وقد أطلقـت على هذا النوع من الحركات تسمية «الشعوبية « لأنها دعت الى تفضيل الشعوب عـلى العرب واتخذت إضافة لما ذكر الفلسفة أو الجدل الفلسفي نشاطاً هاماً لها وحاولوا صبغ الثقـافة والمثقفين بالطابع الفارسي ليبدو كل ما هو جيد فارسياً .

نزاع الأمين والمأمون..انتصار المأمون واتخاذه الجند من الفرس

تولى الأمين الخلافة بعد أبيه هارون الرشيد وكان عهد هارون الرشيد ينص على أن يكون للمأمون حكم خراسان وما بعدها من امبراطورية المسلمين في حياة وخلافة أخيه الأمين ، وكان ذلك معناه أن حكمه يبدأ في المكان من الهضبة الإيرانية ، ورغم وجود العرب في تلك البلاد إلا أن المأمون أصبح في حكمه محاطاً بالفرس من أعوان وجند ولنتذكر أن أمه كانت فارسية وكان مربيه كذلك ، فلما وقع النزاع بين الأخوين كان جيش المأمون من الفرس وكان أقوى من جيش أخيه فانتصر عليه وقتل الأمين في المعركة فأصبح المأمون خليفة المسلمين واتخذ مدينة مرو الواقعة في خراسان عاصمة له فتمرد عليه البغداديـون مما اضطره الى الرجوع عن قراره في تغيير العاصمة ورجع الى عاصمة أبيه بغداد ، ولكنه أبقى على جيشه الفارسي خشية أن يكون عرضة للتآمر من أبناء العائلة العباسية .

٢٠- انظر الجزء العاشر من البداية والنهاية لابن كثير ص٤٥٨٢ وما بعدها .

المعتصم يتخذ جيشاً من الترك ..

كان المعتصم أحد أبناء الرشيد وقد تولى الخلافة بعد وفاة أخيه المأمون وهو ابن جارية تركية وكان قبل تولي الخلافة يميل الى شراء المماليك من العنصر التركي حتى اتخذ منهم جيشاً وكان هؤلاء يعاملون الناس بخشونة مما ولد الاضطراب بينهم وبين أهالي بغداد فطالب هؤلاء الخليفة بأن يقوم بإخراج الترك من بغداد ، ووجد الخليفة الحل في بناء مدينة جديدة سماها «سُرَّ من رأى « وهي المدينة المعروفة بسامراء والعامرة حتى الآن . أما بغداد فقد احتفظت بمكانتها الثقافية والاقتصادية المتألقة . وهكذا تحول الخليفة وجنده الى عاصمته الجديدة .

وقد شهدت هذه الفترة بداية التدخل الأجنبي في بلاد المسلمين حيث لما نشبت ثورة بابك الخُرَّمي حاول البيزنطيون الاتصال به واتفقوا معه واستغلوا الأحداث لاحتلال زبطرةوشاشاط من بلاد المسلمين٢١ .

أثرفتنة «القول بخلق القرآن» في زمن المأمون على العلاقة بين الخلافة والناس..

كان لتأثر المأمون بالثقافة والمحيط الفارسي الطابع أثره الواضح على عقليته وتفكيره وتوجهه الى المشاركة في الجدل الفلسفي والنشاطات الفلسفية ، وتأثر بالتالي بأفكار المعتزلة واعتقد بفكرتهم القائلة بأن القرآن مخلوق وهو ما لم يقل به أحد من قبل وحاول أن يفرض هذا المعتقد الجديد على علماء الدين بوجه خاص الأمر الذي قوبل بامتناع وإصرار على الرفض وتوفي قبل أن يرجع عن هذا الرأي كما يبدو وربما تأثر به المعتصم لكنه كان ذا ميول عسكرية وحربية بعيدة عن الفلسفة والتفلسف ، ومع ذلك فإنه لم يؤثر عنه العودة عن هذه المسألة .

٢١- انظر العراق في التاريخ / لجنة من الأساتذة الجامعيين ص ٩٢٤ .

لقد كان لهذه الأفكار الغريبة عن المجتمع العراقي بشكل عام أثره في ضعف العلاقة بين الخلفاء والناس و انصراف الناس عن تأييد الخلفاء والفتور عن الجهاد والأعمال الحربية بسبب ذلك وانصرافهم الى تأييد علماء الدين وأهل الحديث ولاشك أن انفصام العلاقة بيــن السلطة والشعب مؤشر خطير على نتائج خطيرة لاشك أنها كانت أسباباً للأحداث المأسـاوية اللاحقة التي شهدها العراق وما تعرض له من احتلال أدى الى منتهى الاختلال لقـرون طويلة بعد أن كان العباسيون في عهد الرشيد مثلاً يتمتعون بأوسع تأييد ذكره التأريخ مما خلد ذلك العصر في أذهان الناس .وذلك لن ينفي وجود استثناءات بالتأكيد .

obeikandl.com

تدهور الأمور المالية وتدخل الجيش في السياسة وقتل المتوكل

بما أن العلاقة بين السلطة والشعب قد انفصمت كما ذكرنا فلم يبق للحاكم من سند سوى الجيش الـــذي لم تكن علاقته بالحاكم قائمة على عقيدة وإنما على المصلحة وتبادل المنفعة وتقاضي الأجـور مقابل الخدمة كما هو الحال في الجيوش المعاصرة ولابد من الإشارة الى أن مقام الخلافة ومكانتها إنما تقوم على أساس أن الخليفة هو الراعي الأكبر للدين فلما ابتدع الخليفة أمراً لادليل عليه ثـم حاول فرضه على الخاصة والعامة اعتبر غير ملتزم بالنصوص المقدسة وهو ما ينفي عنه صفته الدينية العظيمة وهذا ما هون على الجيش التمرد بسبب قطع رواتبه لأن خزانة الخلافة قد نضبـت مواردها بسبب كثرة الإنفاق على بناء القصور ومظاهر الأبهة منذ الإنتقال الى العاصمة الجـديدة فسقط الخليفة صيدا سهلاً بيد الجند الذي وصلت بهم الجرأة والتجاوز على موقع الخلافة أنهم قتلوا الخليفة المتوكل ونصبوا خليفة جديداً بدله ٢٢ وهكذا تم تدشين عصر التدخلات العسكرية في شؤون السلطة ، وهنا نعيد التنبيه الى الموضوع الخطير المتعلق بتدهور الموارد المالية أو عدم كفايتها ولاشك أن هناك أسباب تتعلق بتغير نظرة السلطة ونظرة الناس الى السلطة ، كما أن نفقات الجيش كانت في السابق تتم تلبيتها من الغنائم وكانت القبائل تمثل قوة احتياط حربي جاهزة عند اللزوم ولكنها لاتتقاضى أجوراً إلا عندما تقاتل ،أما في هذا الزمن فقد أصبح الجيش قوة دائمة تتقاضى أجورها بشكل دائم وتكلف خزينة الخـلافة أموالاً طائلة بسبب أعـدادهم الكبيرة التي لاتواجه عدوا تغنم منه بل تسد حاجة السلطة الى قوة تحميها من (الآخرين) .

٢٢- انظر العراق في التاريخ / لجنة الأساتذة الجامعيين ص٢٣٤

طموح أمراء الجيش إلى التسلط

لقد أصبحت نظرة المحارب الى وظيفته الحربية مختلفة عما مضى فقد كان الدافع الديني أساسياً لدى المحاربين في الماضي حتى لو تـطلع هؤلاء الى الحصول على شيء من الغنائم وهو أمر لايتنافى مع الدافع الديني لـلمحاربين أما وقد انتفى أو تلاشى الدافع الديني وخفتت حرارة العلاقة القائمة على العقيدة فلم يبق إلا الدافع المادي القائم على المصلحة والانتفاع فإذا لم تتوفر المصلحة ولم يتحقق الانتفاع فلا يتبقى إلا الهيبة والخشية من العقاب وبما أن الجيش هو القوة الوحيدة التي بيد السلطة فمن السهل أن ينقلب الجند على السلطة وقد وجدوا صفهم موحداً ومصلحتهم لاتتجزأ وقد لاتتفق مع مصلحة السلطة وهكذا أصبح أمراء الجيش يطمحون الى فرض ارادتهم والمجيء بسلطة تخضع لأهوائهم .

سيطرة الوزراء على الإدارة المالية

لقد بقي هنـاك القليل مما لدى الخليفة بعد أن فقد هيبته أمام الجيش المكون من عناصر أجنبية يمكن تشبيهها بالمرتزقة في وقتنا الحالي بل ربما لم يعد لديه ما يعادل ثقل المسؤولية أمام الله وأمام الناس أو أمـام التاريخ ، وبما أن الخليفة قد وصل الى هذه الدرجة من الضعف فما الذي يمنع الوزير وقد وضع الخليفة بيده إمكانية التحكم بالمفاصل الباقية (غير العسكرية) من أن يتصرف على هواه خصوصـاً فيما لو كان قد جيء به بصفقة مع الجيش المتحكم بمقاليد الأمور هذا ما حصل٢٣ .

ازدياد نفقات الجيش والبلاط

و لأسباب لاتبتعد عما تطرقنا إليـه نجد ازدياد نفقات الجيش والبلاط والإدارة ولم يكن غريباً تدهور الزراعة بسبب تعقد نظام الخراج.. كذلك لم يكن من الغريب وفقاً لما ذكرناه

٢٣- انظر ((العراق في التاريخ))/ ص٣٣٤

مابدأ حصوله من التجاوز على الأملاك السلطانية وللأسباب ذاتها شاع الفساد ولم يعد ممكناً ضبط الموارد المالية بشكل فعال فتم اللجوء إلى الضمان في جباية الأموال وتلت بداية فساد النظام المالي٢٤ كل كارثة ممكنة ، لقد أصبح الحاكم لايمثل الشعب ولاعلاقة له به ولايدافع عنه بل يخاف منه ولذلك أصبح الشعب لايدافع عن الحاكم ولاعلاقة له به بالمقابل .

تنامي قوة الأقاليم على حساب الخلافة وظهور الإمارات في أطراف الدولة

في هذه الفترة وكنتيجة طبيعية للظروف التي تكلمنا عنها فقد بدأت أطـراف الدولة تفقد علاقتها القوية وارتباطها الوثيق وكان من الأفضل لبعض من لهم نفوذ بعيدا عن العاصمة غير الفعالة أن يديروا مناطقهم بأنفسهم ثم ليحاولوا توسيع مناطق نفوذهم واماراتهم وتقويتها فظهرت امارات أوحكومات قادها الفاطميون في تونس ومصر ثم الشام ، و القرامطـــة في جنوب العراق ، والبويهيـــون في الهضبة الإيرانية ، والحمدانيون في الموصل وحلب . وربما كان البويهيون أخطر هذه القـوى الجديدة فإنهم لم يلبثوا لدوافع غير بعيدة عن اهتمامات الأقوام الإيرانية أن توجهوا الى بغداد بعد أن عادت إليها خلافة بني العباس .

٢٤- انظر العراق في التاريخ / ص٤٣٤

سيطرة البويهيين على السلطة السياسية في العراق

لم يكـن للخليفة من القوة مـا يمكن الدفاع به عن العاصمة بشكل ناجح وهكذا استطاع البويهيون السيطرة على العراق مع المحافظة على سلطة العباسيين الدينية مع كون البويهيين يدعون أنهم مـن أتباع مذهب التشيع للعلويين .. ثم لم تلبث البلاد أن شهدت نشوب النزاع داخل الجيش البويهي بين الديالمة والأتراك وانتهى بسيطرة الديالمة في شيراز والأتراك في بغداد٢٥ . وكما هو متوقع من كل محتل فقد شجع البويهيون الانقسام الطائفي٢٦ لأن ذلك مما يضمن لهم دوام احتلالهم للبلاد وبذلك نجد أن التدهور قد شمل جميع جوانب الحياة فمن تسلط االجيش الى تدهور الادارة وانحطـاط مقومات الاقتصاد الى الاحتلال الجديد الذي استهان بكل مايخص العراقيين ومـــزق وحدة نسيجهم الاجتماعي وهذا أخطر ما جاء به المحتلون على الدوام وسلاحهم الفعال ضد أبناء البلاد٢٧ . ويلاحظ هنا أن الزراعة تدهورت حتى اضطرت بغداد الى استيراد الطعام من مناطق الشمال والجنوب التي لـــم تخضع للاحتلال البويهي بل لإمارات أُخرى منافسة . وعانت التجارة من كثرة الضرائب والمكوس واضطراب الأمن وانقطاع تجارة المغرب وعانت البلاد عموما من تكرر الفيضانات ونتج عن كل ذلك وقـــوع الأوبئة التي سنلاحظ تكرر وقوعها في الأيام اللاحقة .

استعانة الخليفة بالغزنويين السلاجقة ..

كان الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) يحاول التخلص من السيطرة البويهية أو الحد منها ، وأمربوضع كتاب يحدد منهج العمل لإدارة عباسية مستقلة . وفي تلك الفترة نشطت مجموعة من قبائل (الغز) التركية بقيادة طغرلبك السلجوقي الذي أعلن ولاءه

٢٥- انظر العراق في التاريخ ص١٤٤ .
٢٦- انظر العراق في التاريخ / لجنة الأساتذة الجامعيين /ص٢٤٤ .
٢٧- انظر العراق في التاريخ / ص٢٤٤

للخليفة وقـد استعان به الخليفة للخلاص من البويهيين الذين كثر النزاع فيما بينهم ومع أمراء قبائل العراق الكبيرة مثل قبيلة خفاجة٢٨

التسلط السلجوقي وثورة أهل بغداد عليهم وضغوط الخليفة على السلطان

لم يلبث السلاجقة بعد دخولهم بغداد أن ضايقوا كان تعاملهم يتسم بالخشونة وكان الجنود يصرون على السكن في بيوت البغداديين مماكان سبباً في احتجـاج الخليفة على السلطان ،(وهي تسمية بدأت تطلق على رئيس أمراء السلاجقة) وتهديده بمغادرة بغداد (يبدو في ذلك تلميح للحرب) فاستجاب السلطان وأمر الجند بالخروج من مساكن البغداديين وأمرهم بتخفيف الضغط على السكان وقام بعقد مصاهرة مع الخليفة بتزويجه السيدة « خاتون « من العائلة السلجوقية. لكن سلوك السلاجقـة لم يكن ليستقيم على وتيرة مريحة فعاد الصراع بين الخلفاء وحلفائهم السابقين مما دفع (المسترشد بالله)عام ٥٥٥ هـ. ١١٦٠ م الى منع الخطبة للسلاجقة وقام باتخاذ إجراءات لتثبيت الأمن والاستقرار وتحديد الاسعار لغرض كسب رضى وتأييد السكان وعمل على إذكـاء الصراعات الناشبة بين أمراء السلاجقة واستعان بأمراء العرب والكرد لحربهم خارج الأرض العراقية لكنه وقع في الأسر وقتل واستمرت تدخلاتهم في الحكم رغم أن الخلافة استعادت شيئاً من هيبتها بانتصار صلاح الدين على الفاطميين في مصر٢٩ ، وأعاد الخطبة باسم الخليفة العباسي .

ويلاحـظ في هذه الفترة التي تحدثنا عنها .. سيطرة السلاطين على الموارد والأموال و تشجيعهم الصراع بين أهل الحواضر وأهل البادية (مزيد في الحلة /خفاجة في الجنوب / عقيل في الشمال)٣٠ كما يلاحظ تنامي الهجـرة من الريف بسبب الضغوط المالية

٢٨-انظر ص٣٤٤ .

٢٩- انظر العراق في التاريخ الصفحات ٧٤٤ ـ ٨٤٤ ـ ٩٤٤ ـ ٠٥٤.

٣٠-انظر العراق في التاريخ / لجنة الأساتذة الجامعيين /ص٥٤٤ ،كذلك ص٢٥٤ وص٣٥٤.

وتنامي قوة الحركات الصوفية وانتفاض أهل الحرف والصوفيين ضد السلاجقة .. كما لوحظ تزايد عدد السكان في بغـــداد هرباً من الحركات المعادية للدولة قبل دخول البويهيين اليها مما سبب المجاعة لعدم كفاية الموارد الغذائية ثم حدث تناقص كبير في عدد السكان إما بسبب الهجرة منها بعد دخول البويهيين أو بسبب بروز ظاهرة الفيضان وتكرار المجاعات فكان كلا هذين العاملين مؤثراً . كما يلاحظ أن العراق شهد فترة من الاستقلال في عهد الخليفة (الناصر لدين الله) الذي حاول تحرير إيران من نفوذ السلاجقة لكنه لم يتمكن من ذلك حتى اضطر الى الاستعانة بقوة جديدة ظهرت في جهة الشرق ممثلة بدولة الخوارزميين .

ظهور علاء الدين تكش الخوارزمي وتحالفه مع الخليفة للقضاء على السلاجقة

تمكن (علاء الدين تكش) الذي تحالف مع الخليفة من تحقيق النصر بمساعدة الجيش الذي أرسله الخليفة من بغداد من القضاء على الجيش السلجوقي وسلاطينهم فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة.

ظهور أطماع الخوارزمي والخلاف معه

يبدو أن رغبة الخليفة في التخلص من السيطرة الأجنبية وضعف امكانياته الحربية أمام القوى المختلفة التي سال لعابها طمعا في العراق وبغداد على وجه الخصوص ، هذه الرغبة كانت تدفعه في كل مرة للتحالف مع قوة جديدة للتخلص من عدو يحتل البلاد . وكانت الخلافة العباسية قد أصبحت تتسم بسمتين أُولاهما أن الخليفة بات في وضع مشابه لغيره من الأمراء العابرين الذين يظهرون على الساحة الإقليمية ويسيطرون لفترة من الزمن قد تطول أو تقصر وهذه قد تكون وجهة نظر سكان العراق خصوصاً القبائل خارج بغداد أي أن سلطته المقدسة لم تعد على ذات الهيبة والتقديس لدى الناس وهذا يفسر لنا ضعف الخلافة ، أما السمة الثانية فهي أن مكانته الدينية لم تزل مؤثرة في نـــظر

بعض الشعوب خارج العراق مما يجعل الأمراء الطارئين أو كثيراً منهم يطلبون اعتراف الخليفـة بهم كقوة شرعية أو كيان سياسي شرعي ويقدمون في سبيل ذلك التضحيات اذا لزم الأمـر والاستثناء الوحيد من هذا التوجه يحدث عندما يكون الانتماء العقائدي للقوة الناهضة مغايراً للمعتقد الذي عليه الخليفة وغالبية المسلمين كما عرف عن البويهيين مثلاً . لقد استعـان الخليفة بقوة رسخت في بخارى وما جاورها من بقاع أواسط آسيا وتطلعت بأنظارها جهة الغرب نحو إيران وما جاورها ولذلك لبت تلك القوة دعوة الخليفة العباسي واشتركت في الحرب ضـد السلاجقة وتمكنت من سحق قوتهم الحربية وبيدو أن قسمة المغانم قادت الى الاختلاف فرفض الخليفة الاعتراف بشرعية علاء الدين الخوارزمي٣١ وإدخال اسمه في دعاء خطبة الجمعـة وأشباهها ، وربما كان الخليفة يتطلع فعلاً الى استعادة حكم إيران وما يليها من البلدان الى حظيرة الحكم العباسي المباشر ، أو أنه خشي أن يقع العـراق مرة أُخرى تحت تسلط جديد يحـد من قوة حكم الخلافـة العباسية ، وهكذا وقع نزاع جديـد وتهديد آخر للبلاد وإن كان قد توقف عند الحدود ووجد الخليفة نفسه مرة أخرى في حاجة الى الاستعانة بقوة جديدة ٣٢.

ظهور المغول..واتهام الخليفة بالاتصال بهم لاستعدائهم على الخوارزميين.

يلمح بعض المؤرخين (ولا اوافقهم الرأي) الى احتمـال قيام الخليفة العباسي بإرسال طلب بالتدخل ضد الخوارزميين الى قائد المغول الذين ظهرت قوتهم في أواسط آسيا القصية باتجاه الشرق أي ما بين حدود دولة خوارزم وحدود الصين ،ويذكر المؤرخ عباس العزاوي أن سفير النـاصر وصل الى جنكيز خان « حباً في المصافاة .. وفي هذا من التكتم ما فيه» ٣٣ ونجده في مكـان آخر ينقل تلميحاً لابن الأثير حول الموضوع وربما

٣١- ينص السيد عباس العزاوي في الصفحة٥٠ من الجزء الأول من كتابه تاريخ العراق بين احتلالين على أن حاكم دولة خوارزم في ذلك الوقت كان (خوارزم شاه محمد بن تكش) .

٣٢- انظر ـ العراق في التاريخ/ ص٩٥٤

٣٣- عباس العزاوي / تاريخ العراق بين احتلالين /ج١ ص٣٠١ وانظر ص٥٠١ حول تلميح ابن الأثير .

بنى عليه ، كما نقل الباحث عبد الأمير الرفيعي رأياً بني على ذات التلميح بناه الباحث الألماني (برتولدشبولر) و لكنه (الرفيعي) نـاقش هذا الرأي (رأي شبولر) وحاول دفعه بالقول أن المماليك هم الذين فعلوا ذلك٣٤ ، بينما نجد الباحث البريطاني ستيفن هيمسليلونكريك يبرئ الخليفة ضمنياً ويتهم من هم دونه بلا تحديـد إذ يرى أن الخليفة كان مايزال « فوق الحكام والأمراء الذين كانوا يتواطأون مع أمراء المغول البعيدين على جيرانـهم المسلمين « ٣٥ . وينقل الرفيعي اقتباس الدكتور جعفر خصباك عن المؤرخ قطب الدين البعـلبكي أن الوزير ابن العلقمي هو الذي كاتب التتار وأطمعهم في البلاد ٣٦ ، وهو أمر يبدو منطقيـاً لأسباب موضوعية ناقشها المؤرخون وبدت واضحة من نتائج الغزو المغولي وتكريمهم لمن آزرهم كما هو مأثور عنهم .

والمغول أو التتـار هم أشقاء الترك الذين دخلوا تحت راية الإسلام وقصتهم تذكر القارئ المطلع بقصة ياجوج ومأجوج التي ورد الذين بنى ذو القرنين سداً يمنعهم من الانتشـار في الأرض لما أظهروه من الفساد٣٧ . وتذكر قصة يأجوج ومأجوج انما مبعثها المعارك الشرسة التي خاضها المغول ضد الأمم المجاورة وسياسة الفتك الذريع التي اتبعوها مع الشعوب والقتل بلا شك هو جوهر الفساد وأعمق صوره الظاهرة للعيان . انتشر المغول بسرعة واجتاحوا بلداناً عريقة كـالصين في شرق بلادهم ثم اتجهوا غرباً لاجتياح الممالك التي في طريقهم حتى وصلت قبـائلهم الى أوروبا .واتبعوا سياسة وحشية في التنكيل

٣٤- عبد الأمير الرفيعي / العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية ج١ ص ٧٨ ، ولكن يبدو أنه إنما يدافع عن ابن العلقميلاغير .

٣٥- لونكريك /أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ص٥٢ .

٣٦- انظر الرفيعي /العراق بين سقوط الدولة .. / ص٨١١ وص٩١١ .

٣٧- جاء ذكرهم في سياق قصة ذي القرنين في سورة الكهف آليات ٤٩ و ٥٩ و٦٩ و٧٩ .. كما ذكرهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أم حبيبة بنت أبي سفيان عن أم المؤمنين زززينب بنت جحش أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل عليها فزعاً يقول « لاإله إلا الله ويل للعرب من شر اقترب فتح اليوم من ردم ياجوجوماجوج مثل هذا «وحلّق بإصبعه والتي تليها (أي الابهام والسبابة) انظر صحيح البخاري / المجلد الثاني ـ ج٤ /ص٣٤٣ / الصادر عن دار الحديث ـ القاهرة .

بأعدائهم متبعين سياسة الإبادة والتدمير الواسع يذكرنا بسياسة الأرض المحروقة ، فلم تصمد الممالك القائمة بينهم وبين العراق أمامهم طويلا ومنها دولة خوارزم ، فجاءت موجتهم العارمة باتجاه بغداد التي كان فيها المستعـصم خليفة للعباسيين ولم يكن شخصية كفؤاً للزعامة بل كان ليناً ضعيف الرأي يتحكم به مماليكه مـن جهة ووزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي الذي يتهمه عدد من المؤرخين بأنه كان عدا ما ذكرنا بوابة خلفية دخل منها المغول لسبب ما ربما تخلصاً من المماليك الذين يتلاعبون بالخليفة وربما أراد االتخلص من الخليفة ذاته لأسباب طائفية ، لأنه اذا كان لم يؤمـن بشرعية خلافة العباسيين فكيف يؤمل منه حماية ملكهم . وكان الخليفة يميل بعقلية الخلافة وموقعه الديني المفترض بعيداً عن فكرة التسليم للمغول التي كان يدعوه اليها الوزير لكنه في النهاية وجد نفسه مذعناً لرأي الوزير بعد تسليم أمراء الجيش الذي انهزم أمام المغول خارج بغداد وبينما قتل الخليفة بعد أن استسلم للمغول كما نصحه الوزير فإن الوزير حصل على الوزارة من جديد في عهد الغزاة المغول وأصبح على رأس الإدارة المغولية مما يدل على أنه كان رجلهم في دار الخلافة كما كان يقال عنه ٣٨.

أمـا الخليفة وهو المستعصم فيقول عنه عباس العزاوي (وغالب من تكلموا على الخليفة من كتاب المغول ومؤرخي عصورهم فلا يعوّل على ما يقولون)٣٩ وأكثر من وصفوه إنما يصفونه بالبخل و بكثرة اللهو والغفلة وضعف الرأي مع إشارة الى أنه كان حافظاً للقرآن متديناً بشكل عـام لكنهم يسجلون عليه أنه لم يمتنع عن السماع وأنه وكل أموره الى غير الأكفاء مـن غير العرب ٤٠ .وفي مسألة الاستعداد والحزم يسجل أحد المؤرخين الذي نقله العزاوي مقارنة بين جيش العباسيين في أيام الناصر وبين الجيش في أيام المستعصم فيقول٤١ «كان للناصر من العساكر ١٢٠ ألفاً (عدا العرب .. والتركمان

٣٨- انظر / العراق في التاريخ / ص١٦٤وص٢٦٤ .
٣٩- االعزاوي المصدر السابق ج١ ص١٠٢ .
٤٠- انظر ص٣٠٢ من نفس المصدر للعزاوي .
٤١- تجده في الهامش من ص٣٠٢ من كتاب العزاوي المذكور أعلاه .

والمتعجمين ..؟) في العراق (وحده) أمـا في عهد المستعصم فكان ببغداد عند نزول هولاكو دون سبعة آلاف جلهم ليس بنافع ، وهـو مقبل على اللهو « ونجد في موضع آخر ما شاع من القول بأن « الخليفة أهمل حال الجند ومنعهم أرزاقهم بميله لرأي الوزير .. ٤٢» ، وقد يكون المماليك وراء تلك الأقوال لكنها لايمكن أن تكون انطلقت من فراغ والأمر المؤكد أن النزاع بين المماليك وبين الوزير قد أضعف الدولة وأضعف الجيش والإجراءات الدفاعية . ويمكن القول أيضاً أن السبب الرئيس وراء كل ما ذكرنا من ظواهر الضعف في الدولة إنما هو التحلل الاجتماعي من جهة والانقسام من جهة وكثرة العنـاصر الدخيلة في المجتمع في ظل ابتعاد تدريجي عن مصدر القوة المتمثل في التمسك بتعـاليم الاسلام الحق ولم يقم الخلفاء بالأمانة ولم يعطوها حقها واعتمدوا على مماليكهم وأتباعهم فاستغل ذلك ضعفاء النفوس وأصبحوا هم الأمراء بل الخلفاء الفعليين .

ويلاحظ أن الصراع فـي بلاط المستعصم بين المماليك والوزارة (فالوزير يريد حلاً سياسياً غير مقنع للخليفة ، والمماليك اختاروا حلاً عسكرياً لم يتمكنوا من اثبات جدارتهم له) قد ترك الخليفة عاجزاً متحيراً بين هـذا وأولئك هذا إضافة لما يذكر بكثرة تصل الى حد عن ميل المستعصم الى اللهو (مهما كان نوعه وبراءته) وضعفه وعجزه عن اتخاذ إجراءات تكفل النصر والخروج مـن دائرة الصراع بين مراكز النفوذ في الدولة والارتقاء على مظاهر الانقسام في المجتمع وتـوحيد الأمة أمام أخطر هجمة واجهتها على مر الأيام ، فكانت تلك الأسباب مدعاة لانتصار المغول وسقوط بغداد . وصدقت نُذُر الله سبحانه وتعالى عندما قال « ولاتنازَعوا فتفشَلوا وتَـذهبَ ريحُكمْ» .

٤٢- العزاوي المصدر أعلاه ص٥٠٢ .

سقوط بغداد بيد هولاكو

لقد توجه المغول الى العراق بعدما قضوا على دولة خوارزم وعـــدد من الدويلات وطلبوا من الخليفة الخضوع لسلطتهم والحكم باسمهم وهو ما لايمكن قبوله مـن حاكم يعتبر أكبر حاكم مسلم ويحكم باسم الدين الذي يحرم عليه الخضوع لسلطة حاكم كافر كما هو الحال مع هولاكو ، وهنا تختلط احتمالات التآمر مع العوامل الموضوعية فقد انقطعت تجارة الرقيق الترك من أواسط آسيا الذين كانوا يشكلون الشريان المغذي للجيش بالمجندين الجدد مع انقطاع علاقة التضامن بين السلطـة وبين القبائل بسبب سياسة الدولة التي تتطلب فرض الضرائب بسبب توقف المغانم وسيطرة الأمراء على موارد بلدانهم هـذا يُضاف الى قطع أعطيات الجند لأي سبب كان وتسرب المقاتلين ، ومع ذلك فان عباس العزاوي يذكر لنا أن المغول وقـــد حاصروا بغداد « قارعوا للتغلب عليها سنين كثيرة وهاجموها بكتائب قوية فعادوا بالخيبة « ٤٣ ، كما يبدو أن الأوربيين كانوا قد اتفقوا مع التتار فلم تتوقف حروبهم مع المسلمين مما شغل بعض الأمراء عن نصرة دار الخلافة .

الكارثة الكبرى والشبهة على دور الوزير

« وفي الخامس مـن صفر سنة ٦٥٦هـ انتشر عسكر المغول في مختلف أنحاء بغداد ووضعوا السيف في أهلها ، وكـانوا يشعلون الحرائق في البيوت والقصور المقامات المقدسة بعد نهب ما فيها « ولكن .. يبدو أنه كانت هناك استثناءات ..» ومن رجال الدولة من العراقيين سلمت دار الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي...»٤٤ والظاهـر أن هولاكو كان له العديد من الجواسيس والعيون في داخل بغداد ، فالباحث الرفيعي ينقل لنا إصرار هولاكو على حضور (الدويدار) قائد الجيش العباسي عنده فلما حضر هذا وتبعه

٤٣-العزاوي / تاريخ العراق بين احتلالين / ص٥٤

٤٤- عبد الأمير الرفيعي / العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية / ج١ ص١٣١ .

عدد كبير من الناس ظناً منهم أنّه سيؤمنه .. ففرقهم هولاكو .. « ثمَّ قتلهم عن آخرهم وفي اليوم التالي قطع هولاكو رأس قائد المماليك .. الدويدار ..»٤٥ . واذا كان هولاكو يعلم ما خلف أسوار بغداد ويعلم من يعاديه ومن يناصره فلا بدّ له (وقد عاقب أعداءه) أن يكافئ أعوانه وعلى قدر جهدهم وتعاونهم فنجده يؤمن دار الوزير وجماعة من أعوانه ثم يسند إليه منصب الوزارة وهو أعظم منصب يمكن أن يشغله شخص من غير المغول .

الدور الإيراني والعلاقات مع المغول

يذكر لنا الرفيعي أن (علاء الدين عطا ملك الجويني) الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمغول في العراقي وهو من عائلة إيرانية كما سيرد ذكره التحق منذ شبابه في خدمة المغول منذ احتلالهم إيران التي يبدو أن شخصياتها البارزة استطاعت أن تنال رضا المغول ولم تبد من المقاومة ما يسبب لها وقائع وحشية كالتي ذكرت في بغداد وواسط وغيرها من البلدان مما يدل على أن الإيرانيين كانوا متعاونين مع المغول .

إلحاق العراق بالدولة الأيلخانية في إيران

وفقاً لما ذكرناه وتأييداً له فقد « أصبحت خراسان في تلك الأيام قاعدة النفوذ المغولي ومركزاً لدولة هولاكو (الأيلخانية) التي حكمت ٨٠ عاماً بينما أصبح العراق إقليماً تابعاً لتلك الدولة « .. «بسبب انتشار القبائل التركومغولية في تلك الأنحاء وخاصة في إقليم أذربيجان٤٦ « وسرعان ما توفي الوزير مؤيد الدين بن العلقمي فاستوزر المغول ابنه أبا الفضل من بعده فلما توفي هذا أوكلت الوزارة في العراق الى رجل يوصف بأنه « من أسرة إيرانية عريقة»٤٧ ذلك هو علاء الدين عطا ملك الجويني . وأصبح العراق بذلك مرتبطاً بإدارة إيرانية كلياً .

٤٥- الرفيعي/ المصدر أعلاه / ص٠٣١ وانظر ص٩٢١ .

٤٦- الرفيعي / = = / ص٩٣١ .

٤٧- الرفيعي / العراق بين سقوط الولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية / ج١ ص٠٤١ .

مناقشة موضوعية

لقد مضت الأحداث في زمانها وبقيت ذكراها لتكون عبرة لمن يريد أن يعتبر ولغرض الإعتبار لابد من معرفة الأسباب الحقيقية وراء الأحداث فقد تردد وقوع مسؤولية الأحداث ما بين الخليفة ومماليكه وبين الوزير علماً أن الخليفة وهو المستعصم قـد تم تنصيبه بما يشبه المؤامرة تهرباً من تولية أخي الخليفة السابق ويعرف بلقب (الخفـاجي) الذي ... « عرف بشجاعته واستعداده وتهديداته بانتزاع البلاد من المغول اذا ما تولى الخلافة «٤٨ . ومن الواضح بعدما تطرقنا إليه سابقاً من ضعف المستعصم وهو الخليفة الذي وقع عليه اختيار قادة المماليك الذين هم قادة الجيش أن الخليفة الجديد تم اختياره بسبب مساوئه أو نقاط ضعفه التي لاتؤهله لشغل هذا المنصب بجدارة بل تتركه ألعوبة بيد من يتسلط علـيه ، وفي وقت لم يبادر فيه الجيش العباسي الى نجدة الخوارزميين في معاركهم الدفاعية ضد الـمغول مهما كانت الأسباب وتشاغل الأيوبيين أو انشغالهم بحرب الصليبيين فإن انفراد المغول ببغداد هو المتوقع وفي ظل الضعف والتنازع السائد فيها فإن سقوطها بيد المغول كان أمراً لا مهرب منه . وقد سبق ذكر شخصية الخليفة وتكييف تنصيبه للخلافة بما يكشف أهـواء المماليك الذين كانوا يلجأون الى التمرد كلما أرادوا تحقيق أمر ما ، ولابد لنا من أن نلمَّ بسرعة بأحوال الوزير الذي عليه مدار التدبير أو التدمير ، ينقل المؤرخ عباس العزاوي عن أحد المؤرخين (الفوطي) قوله « توفي الوزير (يقصد به ابن العلقمي) .. وعمره ثلاث وستون سنة ، وكان عالماً ، فاضلاً ، أديباً ، يحب العلماء ويسدي اليهم المعروف إلا أن خيانته لمخدومه (!) تـدل على سوء أصله ٤٩» وقد اتهمه خصومه من المماليك بالخيانة فاتهمهم بمحاولة خلع الخليفة ٥٠ وهي تهمة غير معقـولة فقد جاؤوا به دون غيره .وقـد نصَّ ابن خلدون (وأيّـده في ذلك

٤٨- مجوعة أساتذة / العراق في التاريخ /ص٦٦٤ .

٤٩- عباس العزاوي / تاريخ العراق بين احتلالين / ج١ ص٧٢٢ .

٥٠- انظر « = = .

صاحب الوافي بالوفيات وذكر له شعراً في ذلك) على أنه (أي الوزير) قد كـاتب هولاكو عن طريق صديقه (ابن الصلايا) حاكم إربل يستحثه للمسير الى بغداد (كما نقل عنـــه العزاوي في تأريخه) ، وأنه « أسقط عامة الجند يموّه أنه يصانع التتر بعطائهم ..٥١ «

والسؤال الذي لابد أن يُطرح أن الخليفة اذا كان ومماليكه من فئة معينة فما الذي جاء بالوزير من فئة أخرى وكيف نـال الوزارة ؟ والجواب واضح من ناحية الوزير فكل نفس تواقة الى نيل المناصب فمن الناس من يخـدم المنصب ومنهم من يسخر المنصب لخدمته وخدمة أغراضه فربما أراد هذا الوزيـر (وهي فرضية ممكنة) أن يستخدم منصبه للقضاء على خلافة العباسيين التي لايعتقد بصحتها وقد كان له ما أراد . أما من ناحية الخليفة فربما بصره خواصه بعواقب استبداد المماليك فجاء بطرف مناوئ لهم ليوازن قوة بقوة ولكن ذلك لم ينتج سوى الانقسام في الدولة فكانت النتيجة السقوط المدوي الذي لابدَّ لكل عراقي أن يشعر بالألم لنتائجه الكارثية على البلاد والعباد ومستقبلهما معاً.

والعبرة التي نستخلصها أن أسباب سقوط الدولة العباسية كانت كما يلي

- الابتعاد عن حقيقة شريعة الاسلام التي تأمر بالاخلاص والعدل والاحسان .

- تولية الأمر الى من ليست له كفاءة وحزم .

- الاعتماد على الغير في تسيير شؤون الدولة دون مراقبة لهم ومحاسبة .

- استخدام غير العرب في الجيوش والتخلي عن تجنيد العرب واستخدام نظام الجيش الثابت بدلاً من نظام الجهادية .

انقسام الـدولة بين الملوك والأمراء وتنازعهم ومسارعة عدد منهم الى الخضوع للمغول .

٥١- العزاوي -/ = /ج١ ص٨٢٢ وانظر ص٩٢٢ أيضاً حول الموضوع .

الانقسام الطائفي الذي يدل عليه قيام بعض المناطق (الحلة والكوفة) بقيادة بعض العلويين بإعلان الخضوع لهولاكو فلم يقاتلوه ولم يهربوا عنه بل اختاروا الثالثة (؟!) وهي أسوأ الخيارات ..

مقابل كل ذلك نلاحظ وحدة الجانب المغولي واستبساله ولجوءه الى الأساليب الوحشية ما ولد لهم سمعة مرعبة .

ويبدو من كلام المؤرخين أن بغداد شهدت حوادث اضطراب طائفي خلال خلافة المستعصم وفي وزارة ابن العلقمي الذي يوصف بأنه شيعي٥٢ .. ولكن وجود رجل شيعي في منصب الوزارة في خلافة العباسيين دليل واضح على عقلية التسامح لدى الخليفة على الأقل وهي عقلية لولم تكُن شائعة لما أمكن للخليفة استيزار هذا الرجل لكن هذه السياسة المنفتحة ولدت تطرفاً لدى الجهة المتحكمة وهي جهة المماليك الذين كان لهم في الفتن الدور الرئيس .

حروب هولاكو والمغول

استمرت حروب هولاكو في اتجهات متعددة مشاركاً في الحروب التي نشبت بين المغول وأدت الى انقسام الامبراطورية المغولية الى عدة أجزاء دخل الاسلام الى بعضها في وقت مبكر مثل دولة القبائل الذهبية وأميرهم (بركة) « الذي كان أول أمير من سلالة جنكيز خان يعتنق الاسلام ، وتشير الاخبار بأن انتشار العقيدة الاسلامية شمل جميع أفراد العائلة المالكة هناك ٥٣ « .أي في إمارة بركة وذلك قبل واقعة احتلال بغداد ، وقد وقعت بينه وبين هولاكو حروب طويلة بلا نتيجة . ثم توفي هولاكو سنة٦٦٣ هـ . ثم تزايد دخول المغول في الاسلام ليتوج ذلك باسلام السلطان غازان الذي اتخذ اسم محمود غازان بعد اسلامه وذلك بعد

٥٢- انظر /ارفيعي / العراق بين سقوط الدولة العباسية وسقوط الدولة العثمانية /ج١ ص٦١١ .
٥٣- الرفيعي / العراق بين سقوط ..../ج١ ص٠٤١ .

٤٠ عاما على قيـام دولة هولاكو (الدولة الأيلخانية) وقد دعـا قومه المغول الى الدخول في الاسلام٥٤ . وقد استمرت النزاعـات والحروب بين أمرائهم ودويلاتهم حتى انتهى الأمر الى قيـام الدولة الجلائرية .

صورة بغداد قبل احتلا ل المغول

شهد حكم العباسين في الفترة السبقة لخلافة المستعصم التي وقع خلالها الغزو المغولي تولي الخلافة من قبل بعض الخلفاء الذين يتمتعون بشيء من القوة والرغبة في تدارك الأحوال السيئة وإقامة بعض الإصلاحات فقد تطرقنا الى ذكر الناصر لدين الله والذي ولي بعـده الراشد ثم المقتفي وقد حاربوا السلاجقة وحققوا انتصارات عليهم لأكثر من مرة وتميَّز عهد المستنصر بالله إصلاحات عديدة فلا تزال المدرسة المستنصرية التي أنشأها هـذا الخليفة شاخصة ببنائها وكانت مدرسة جامعة للعلوم المعروفة في عهدهم بما في ذلـك الطب ، وقام بإصلاح نهر الدجيل وسد ديالى والعظيم واستعاة الأوضاع الزراعية الجيدة ونجد من مشاريع في تلك الفترة في المنطقة الوسطى (القاطول . النهروان . الدجيل . نهر عيسى . والملك) وفي المنطقة الجنوبية (الغراف . البزاز . النهر المار بالنجف وعدد من الجداول) وقد أشاد بعض المؤرخين والرحالة بالوضع الزراعي الجيد حول بغـداد والحلة وسامراء وتكريت والموصل حيث تمتد الأرض كأنها بساط أخضر وتمتـد البساتين والحدائق وتكثر النخيل والفواكه وتنتشر زراعة الحنطة والشعير٥٥ .. وكان رخص الأسعار والأمن والعدل من عوامل الرخاء وطيب العيش في العراق الذي نشطت فيه التجارة وشملت بقاع العالم المعروفة ونهضت فيه مجموعة لا بأس بها مـن الصناعات والحرف من دباغة وحدادة وصناعة الآجر والخزف والفخار وصناعـة الورق والصياغة والخياطة وكان ياقوت الحموي ممن أشادوا بمحاسن بغداد وكان افتتاح

٥٤- انظر = ص٣٥١ .

٥٥- انظر / العراق في التاريخ/ ص٨٦٤ .

المدرسة المستنصرية حدثاً له صدى في الآفاق ٥٦ . وكان من مفاخر البصرة وجـود مدرسة متخصصة بالطب ألحقت بها خزانة كتب ومستشفى وكان في بغداد مستشفى كبير يسمونه (البيمارستان) عدا وجود الأطباء فيها ،كذلك ازدهرت الموصل مركزا فكرياً وكذلك إربل كانت تعج بالمدارس كذلك النجف والكوفة والحلة وتكريت .٥٧

obeikandl.com

٥٦- ص074 وص174 وص274 .

٥٧- ص٩٩٤ وما بعدها .